

ثقيلاً عليك يا ابنتي؛ فإنني جربت الملك من قبلك، وعرفت أن الحق لا يبلغ من المرارة في نفس أحد ما يبلغه في نفوس الملوك، وعرفت أن النصيح لا يثقل على أحد كما يثقل عليهم، فلكل امرئ من نفسه ما تعود، كما سيقول شاعر من الناس فيما يقبل من الزمان، ونحن قد تعودنا أن تستقيم لنا الأمور، وأن تجري لنا على ما نريد لا على ما يريد غيرنا، ونحن قد ألفنا أن نأمر ولا نأتمر، وأن ننهي ولا ننتهي، وأن نطاع ولا نطيع؛ فأصبح الشذوذ لنا طبيعة، والجموح لنا فطرة، والاستبداد بالحياة والأحياء لنا قانوناً، فإذا تحدث إلينا متحدث بالحق، أو دعانا داع إلى العدل، أو رغبنا مرغّب في أن نصف من أنفسنا كما ننتصف لها، ضقنا بذلك أشد الضيق، وكرهناه أعظم الكره، ونكّلنا بمن يدعونا إليه أو يرغبنا فيه تنكياً، ولو أن وزيرنا قال لك بعض ما قلته الآن لأرسلته إلى الموت، أو لألقيته في غيابات السجن؛ وهو من أجل ذلك لم يقل لك شيئاً، ولكنه قدّر في نفسه كل ما قلت لك.

ففكري يا ابنتي في رعبتك وارفقي بها، بل فكري في رعايا عشاقك وارفقي بهم؛ فإن نعيم ساعة أو نعيم عام أو نعيم الدهر كله — إن ظفرت به — لا يعدل نفساً من هذه النفوس الكثيرة التي ستزهق ولا قطرة من هذه الدماء الغزيرة التي ستراق، أسمعني لي يا ابنتي أم أنت ذاهلة عني مشغولة بتدبير أمرك هذا الذي تُقدمين عليه!

قالت فاتنة وقد غشي وجهها شيء من كآبة لم يلبث أن جلته ابتسامة حلوة: «لقد استمعت لك يا أبت فأحسنست الاستماع، وما ينبغي أن أذهل عما تقول أو ما تعمل، ومنك تعلمت أدب الحديث وأدب الاستماع وآداب الملك كلها، وما قلت لي يا أبت إلا الحق وما دعوتني إلا إلى الرشd، ولكن أمن الحق أن أكره على ما لا أريد؟! إن هؤلاء الذين يخطبونني إليك يعلمون حق العلم أنني لا أحب منهم أحداً، ولا أبغض منهم أحداً، ولن أتزوج منهم أحداً، أفإن نصبوا لي الحرب ليكرهوني على ما لا أحب ويحملوني على ما لا أرضى، فلقيت كيدهم بكيد مثله، ودفعتهم عن نفسي بما تعودنا أن ندفع به عن أنفسنا، أكون ظالمة آثمة؟! فالتمس لي إذاً يا أبت فرجاً من هذا الحرج، ومخرجاً من هذا المأزق، وهل يقصر إثم الحرب على هذه الحرب التي نحن مقدمون عليها؟! ومتى رأيت الملوك يقدمون على حرب لا تدفعهم إليها شهواتهم الجامحة وعواطفهم الجائرة؟! ومتى رأيت الشعوب تُجنّب هذه الأهوال وتُعصم من الحرب لغير مصالحها المؤكدة ومنافعها المحققة؟! إن أثره الملوك والسادة والزعماء، هي التي تثير الحرب دائماً، وهي التي ترهق الشعوب دائماً، وأكاد أعتقد أن الشعوب إنما خلقت ليرهقها الملوك والزعماء بالحرب والسلم جميعاً، فليست